الحقائق العليا في الحياة

الايمان - الحق - الجمال - الخير - القوة - الحب

للأستاذ عبد المنعم خلاف

الايمان والعلم :

لا حاجة بنا إلى إفاضة القول فى أن العلم بمعناه الحالى — وهو اليقين والاثبات المبنى على التجربة والمشاهدة الحسية — إنما هو من أدوات الايمان بالخالق المدبر . فلو فرضنا وقالت كل الفلسفات والجدليات إنه ليس هناك خالق للكون لظل العلم وحده يقول بوجود ذلك الخالق . لأن كل ما فى الطبيعة يشير ويصيح بأن له خالقاً عالماً يقف أمامه العقل العلمى حائراً دهشاً من سر صنعته وتركيبه وإعداده الأشياء للحياة !

واعتقادى أن أكبر خادم للايمان هو العلم الكونى ، وأن المختبرات والمعامل لو أنصف الناس لعدوها من أقدس المحاريب التى يعبد فيها الاله ويثنى بما يليق بكماله وجلاله .

والالحاد بين علماء الطبيعة أقل منه فى أى طائفة من طوائف علماء العلوم أو الفنون الأخرى . ولذلك قال القرآن « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وصدر الآية يدل على أن العلماء هنا مقصود بهم علماء الطبيعة والمتأملون فيها إذ يقول « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماء »

ولو أن علماء الطبيعة يدخلون معاملهم ومختبراتهم مستحضرين روح العبادة كما يفعلون إذ دخلوا إلى المعابد إذاً لتنزل عليهم إلهام وتوفيق ولذات لا تفنى .

العلم لا سلطان له على البحث فى ذات الخالق لأنه ليس من مجاله فمجاله ما يقع تحت الحواس ، وإنما يستطيع أن يستنتج صفات الخالق . وهو فى هذا الاستنتاج يلتقى مع الفلسفة ، فأرسطو الفيلسوف وأرسطو العالم الطبيعى التقيا فى إثبات «السبب الأول» وكذلك اسحق نيوتن الفيلسوف والعالم التقيا فى قوله « إن خالق هذا الكون على علم تام بعلم الميكانيكا ! » وقل مثل ذلك في بقية العلماء الالهيين كباستور وغيره من العلماء الذين إن ألحدوا فى إله الكنيسة فان يلحدوا في إله الطبيعة الذى هم أقرب الناس إلى معرفته وتقدير صفاته .

ومن المؤسف أن إله الكنيسة فى أغلب الأديان غير الاله كما يدركه العلماء فى الطبيعة . هو إله بشرى يتشكل فى أجساد البشر فى بعض الأديان ، خاص بقبيل من الناس فى بعضها الآخر ، محب للدماء فى البعض الثالث ، محب لعذاب الناس وفناء أجسادهم فى البعض الرابع ، معقد فيه ناسوت ولاهوت ، وأقانيم متعددة فى البعض الخامس . وهكذا وهكذا مما يعذر العلماء الساخرون مع الفطرة البسيطة إذا كفروا به وآمنوا بمن يجدون يده فى الطبيعة

وهنا يمتاز الاسلام امتيازا رائعا فى تقديم صورة للاله هى أسمى ما يمكن أن يدركه عقل علمى عن الكمال الالهى مع بساطة واستيعاب هما سر الفطرة وطابعها الذى يأخذ بنواصى جميع الناس علمائهم المتفهين وجهالهم المبتدئين ومن بينهما فى آفاق المعرفة والادراك فى القطبين وفى خط الاستواء وفى الشرق والغرب .

والواقع أن كل الأديان الالهية قدمت هذه الصورة التى يدركها العقل . ولكن يد التحريف وحب التأويل وتزيدات الكهان وعوامل الفناء التى لحقت الأديان وتقلبات الحوادث بنصوصها الأصلية هي التي مسخت الصورة الرائعة الكاملة التى قدمها الرسل عن الاله كما أوحى إليهم .

لقد وصف الاسلام الاله بما يرضى جميع الناس ، فوصفه بأنه جبار قهار ، ورحيم لطيف ، ومنتقم ورؤوف ، إلى آخر الأسماء الحسنى حتى يرضى أمثال زنوج أفريقيا وبرابرة التبت الذين لا يعبدون الاله إلا إذا كان جباراً ، ولذلك يصورون آلهتهم كالغيلة بصور هائلة ذات عدة رؤوس وأيد وأرجل ، وليرضى أمثال اليونانيين الذين كانوا يتخيلون آلهة متعددة للرحمة والجمال والتناسق والقوة والحب والحرب وغيرها .

وكأن الاسلام يقول لهؤلاء وهؤلاء : ربكم واحد فيه جميع ما تتصورون جميعا من الصفات الحسنى ، فالتقوا جميعا فى رحابه بعبادة واحدة وأسلموا وجوهكم وقلوبكم إليه . « ولله المشرقُ

والمغربُ فأينما تولُّوا فثمَّ وجهُ الله إنّ الله واسعٌ عليمٌ » « وهو الذى فى السماء إلَـه وفى الأرض إلـه » « هوَ اللهُ الذى لا إلـه إلا هوَ الملكُ القدوسُ السلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ الجبارُ المتكبرُ. سبحانَ الله عمَّا يشركون، هو اللهُ الخالقُ البارئ المصوّر. له الأسماء الحسنى »

ولذلك حينما وصف الاسلام لنيتشه أوشوبنهاور — لاأذكر — قال لمحدثه « إذا كان الاسلام كما وصفت فنحن كلنا مسلمون ! » مع أنه كان ملحدا منكرا لعقيدة الجماهير

ولبساطة العقيدة الاسلامية ووضوحها وقوتها وتمشيها مع الفطرة لم يجد الالحاد طريقا إلى الذين اشتغلوا قديما بالفلسفة والعلم من المسلمين ؛ لأنهم كانوا مزودين بتلك الصور الواضحة البسيطة من قضايا الدين . وكانت الفروض التى قرأوها فى الفلسفة اليونانية والهندية والفارسية فروضا ناقصة أو معقدة أومختلة لا تنهض أمام ذلك اليقين الفطرى الذى يستطيع الفلاح والفيلسوف أن يفهماه ويستفداه بكل راحة وطمأنينة فى الاسلام

وعلى العكس عند غير المسلمين ، فقد كان كل فيلسوف لا بد أن يكون « هرطيقا » ولذلك كان كل من يدرس الفلسفة مطاردا من السلطة الدينية لأنها تعلم أن العقيدة الموروثة ستهزم أمام التفكير؛ ولما خابت المطاردة ، نظرا إلى نزوع الناس وتطور الزمان وهجوم العلوم ، زعموا أن الدين قلبي وجدانى فقط لا أثر فيه للتفكير ، وإنما يستند إلى ذلك الشعور ، ليقولوا بعد ذلك إن الانسان يستطيع أن يجمع بين متناقضين أحدهما يسكن فكره والآخر يسكن قلبه ! مع أن أساس الدين قائم على التفكير وإلا ما لزمت حجة الله أحداً من خلقه مادام فكره لم يعقل ولم يفهم وهو منصف، بل مادام فكره ينقض ما يأتى به الدين فى بعض الأحيان

ومن المؤسف أن المسلمين ورثوا هذه الفكرة الباطلة أخيرا من أرباب الأديان الأخرى ، مع أن الاسلام قائم على التفكير ، وحجته العقل ، ومعجزته عقلية دائمة تسير مع رشد الانسان وتقول له « لاتقفُ ماليس لك به علم » « والذين إذا ذُكروا بآيات ربهم لم يخرُّوا عليها صمًّا وعُميانًا ! »

وآفة الاسلام هى جهل أكثر المسلمين بأصوله وتفاصيله ، واتباعهم القضايا التى لم تمحص وتنطبق على بيئتهم وما فيها ، وتسليمهم بالنظريات الغربية كما يسلمون بالمسائل العلمية المادية

وأحسب أن أكثر قادة الفكر والمصلحين الغربيين لو أتيح لهم أن يطلعوا على الاسلام الصحيح لتغيرت أحكامهم التى أرسلوها فى مسائل الخلاف بين الدين والعلم . ويكفى دليلا على ذلك مقال فلتير فى مارتن لوثر : « إنه لا يصلح أن يحل نعل محمد ... » مع أن فلتير لم ينصف محمدا للسيرة المشوهة التى لم يتهيأ له أن يعرف عن محمد سواها

ومن قرأ كتاب « الزنجية تبحث عن الله » لبرنارد شو يدرك أن « شو » ارتفع بمحمد والاسلام إلى قمة الأنبياء والنبوة . وسيرة « جوته » تدل على أنه افتتن بالاسلام، ولذلك شرع فى تعلم العربية وفى تأليف « رواية » عن محمد . وقد مدح أسلوب القرآن وطريقته ككتاب دين . وكلمة شوبنهاور أو نيتشه التى أشرنا إليها سابقا تدل على أن أى عقل متمرد قد يجد سلامه وطمأنينته فى الاسلام . ومقال كارليل عن رسول الاسلام لا يغيب عن بال أحد

وهكذا وهكذا مما لا مجال لذكره الآن ، ومما يبين قوة غزو الاسلام للعقول المتمردة والآراء الفلسفية ، ومما لا يصح معه إدخاله مع غيره فى مسائل الخلاف بين العلم والدين

واعتقادى أن الاسلام هو الذى يستطيع وحده أن يحمى الايمان من أن تجرفه تيارات المادية والالحاد ، وهو الذى يستطيع أن يقره فى كل نفس كما هو فى الطبيعة البشرية بجانب « نزعة الاثبات » التى أنتجت العلم و « نزعة التأمل » التى أنتجت الفلسفة بحيث يعود الايمان باعث فخار بين الناس كما كان وكما يفتخرون الآن بالعلم والفلسفة، لا كما يغضى بعضهم منه حياء إذا قيل عنه إنه مؤمن. وترجمة هذا القول عند الجهال بالعلم والدين معا : إنه مخرف.

وقد تراكمت عقد خفية فى نفوس إنسانية هذا العصر حول الدين لأن كثيراً من الذين ينتسبون إليه حملوا عليه ميراثا كبيرا من الخرافات ومن تضييق الواسع ومن غباوة بعض رجاله الذين لا يعرفون المهمة الأصلية فيه ، ومن تحويل التدين إلى نوع من الهستريا المنفصلة المنفلة عن حكمة الله فى اختلاف الانسانية فى الآراء والمعتقدات .

وكم هى كبيرة جناية الرموز [illegible] وثياب رجال الدين

وشاراتهم وسماتهم التي تميزوا بها من غيرهم ! إنها جناية تحويل الملكية العامة إلى احتكار . . . وجناية إقامة السدود والقيود على الطريق الواسع الذي يوصل كل شخص إلى الله .. وجناية تحديد أبواب معينة لا يحل لأحد أن يجتاز إليه من غيرها ، وجناية إقامة حراسة وخفارة عليها من فئة معينة وبيت تربية خاصة منفصلة عن تربية بقية الناس لا يدخل أحد إليه إلا بإذنها ... وجناية تحديد بقع ضيقة من الأرض لا يحل التعبد له إلا فيها ، بعد بخور وعطور وطبول وزمور . كأنهم يستحضرون عفريتا من الجن إلى حفلة زار ! »

وقد أطلق الاسلام الدين من كل هذا الذي ألصقه به الأطفال والمجسمة والمشبهة ، وجرد محيط العبادة من التماثيل ، والصور والرموز ، وجعل الأرض كلها مكان عبادة فأعاد إلى الطبيعة قيمتها كمحراب دائم للصلاة . وجعل روح الدين في الشارع والسوق كروحه في المسجد : ففي السوق والشارع عبادة عملية ، وفي المسجد عبادة نظرية هي موقف تصفية وجرد لشئون الحياة كلها !

ولم يجعل طبقة معينة تحتكر شئون الدين وتلبس زيا خاصا بها بل حتم على جميع مستفيه أن يكونوا علماء به ما أمكنهم العلم ، ورأى لأئمته ألا يتزيوا بزي خاص بهم حتى لا يشعر الناس بانفصال حياة الدين عن حياة الدنيا .

ولو فهم الناس أن الدين في الشارع والسوق أهم منه في المسجد لتغير وجه الحياة وسير التاريخ ، ولحلت المشكلة التقليدية الموروثة المعنونة « الدين والدنيا »

* * *

من هنا يتبين لنا أن عبء المسلمين فادح وحسابهم عسير أمام الله والحق والبر بالانسانية، لأن إهمالهم إصلاح نفوسهم وتثقيفها وإعدادها بما في الاسلام لأداء رسالته العالمية هو الذي يجر على الناس كل المشقات والمصائب والحيرة والضياع ، وهو الذي يخرج من حظيرة الايمان كل عقل غربي كبير بما يقرؤه من الفروض الفلسفية وبما يلمسه من وجوه الخلاف بين قضايا العلم وبعض نصوص دينه المتهافتة التي تدل أول نظرة صحيحة إليها أنها من غير المنبع الالهي .

ومن الغريب المؤسف أن الفائقين على الشيوعية أو الفوضوية مثلاً يجاهدون في سبيلها جهاداً مستميتاً لينشروها ويجعلوها دين الناس ويحسبون أنفسهم أصحاب رسالة يجب أن تتم وتشمل الأرض جميعها ... بينما المسلمون الذين عندهم علاج كل نكبة في العقل أو في النفس أو في المال يجهلون مهمتهم ولا يؤدون رسالتهم كما كان أجدادهم الأقدمون يؤدونها ويموتون في سبيلها على ضفاف الكنج وأسوار الصين وشواطىء بحر الظلمات ، وهم معتقدون أنهم يؤدون إلى الناس أعظم خدمة وأكبر منة تطيب بها نفوسهم عن اقتحام ديارهم وثل عروشهم وهدم أصنامهم الحسية والمعنوية !

إن إنسانية الشرق والغرب لا تزال حائرة ترسل روادها وأرصادها « للبحث عن غد » يشرق عليها ضحاه وهي في واحة الهدى والطمأنينة . . . لا تزال « زنجية تبحث عن الله » ! والمسلمون الذين أسعدهم الله بمعرفته وبالطمأنينة والهدى لا يشعرون بتبعاتهم الثقيلة نحوها ، ولا يزالون يعيشون لأجسادهم وأنفسهم فقط ... بل إن الثقة بما عندهم قد ذهبت عنهم . وقاتل الله الجهل وحياة الفسولة !

(الرستمية) عبد المنعم خلاف

التصوف الإسلامي

في الأدب والأخلاق

كتاب لم يسبق له نظير في اللغة العربية

« وقد نال به المؤلف إجازة الدكتوراه في الفلسفة برتبة الشرف من الجامعة المصرية »

يقع في مجلدين كبيرين وثمنها معا أربعون قرشا
وهو يطلب من المكاتب الشهيرة في البلاد العربية
ويطلب بالجملة من مطبعة الرسالة